محمد السّعيد الزّاهري أديبا مصلحا

أ/ عبد الرّحمن الزّاوي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعـــة المديـــــة

مقـــــــدمة:

دراسة الشخصية الأدبية في حياتها، تكون عادة مزيجا من النظرة الفنية النابعة من الإبداع الأدبي للكاتب أو الشاعر و النظرة الاجتماعية المرتبطة بالسيرة الذاتية، وقلما يستطيع أحدنا فك ذلك الترابط في تقييم المبدع .فإذا طويت صفحة العمر ، وتوقفت السيرة الذاتية عن الحركة واندرجت في عداد الذكريات، أصبح الإنتاج الأدبي الأصيل للراحل مدار التقييم، ومرجع الاحتكام، ونقطة اللقاء الموضوعي بعيدا عن المؤثرات العاطفية، والملابسات الذاتية .

والمحتكم إلى إنتاج الزاهري، في العشرينيات والثلاثينات شاعرا وكاتبا، وإلى مواقفه المتعددة، مربيا مصلحا وصحفيا، وإلى توزع هذا الإنتاج بين الصحف والدوريات ..يجد الزاهري، في تلك الفترة المبكرة من القرن العشرين، من أوسع الكتاب الجزائريين انتشارا في المشرق والمغرب وأغزرهم عطاء وأدقهم وصفا للمجتمع ،وأصدقهم تعبيرا عن أسراره وخفاياه.

لا أترجم في هذا المقال لحياة الشيخ محمد السعيد الزاهري (1899-1956) فقد كتب عنها العديد من الباحثين (أبو القاسم سعد الله، صالح الخرفي، محمد ناصر، عبد الملك مرتاض، سليمان الصيد، فوزي مصمودي...)، وإنما كان هاجسي هو الكشف عن جانب مهم في مسار هذا المصلح الفذ والذي يتمثل في تجربته الإصلاحية، ومغامراته في هذا العالم.

الزاهري والأصالة:

إذا نظرنا إلى كتابات الزاهري من الناحية الفنية تجسم لنا الرجل أصيلا في نثره وشعره، أصالة فنية متميزة، ذا تصرف قدير في اللغة، وطواعية نادرة في القافية، وأسلوب قصصي شيق في النثر، ومقالاته كلها وهي تعالج مواضيع هامة في الدين واللغة والأدب والتاريخ والمجتمع، صاغها الزاهري في أسلوب قصصي روائي جذاب، إن كان بعضه حقيقة وواقع ملموس بعضه الآخر مسحة فنية خالصة، وتجنيح خيالي مبدع، لا يتجنى على الواقعية، إنما يقربها من النفوس، ويتوسل لها إلى الأفهام، الأمر الذي يكسب المضمون الجاد. [1]

فنجد مقالاته (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير) كلها قصصية روائية، وكذا دراسته في (عروبة البربر) التي نشرت بالمقتطف في الثلاثينيات، وهي تتصدى لظاهرة اجتماعية ولغوية حيرت المؤرخين، صبها الزاهري في أسلوب روائي استوعب فيه النظريات، واستند فيه مناقشته لمختلف التأويلات والنظريات.

الإصلاح عند الزاهري:

الإصلاح عند الزاهري ومن خلال كتاباته وشعره لم يكن ارتجالا وإنما كان منطلقه من نشأته العلمية ومسيرته العملية في التربية والتكوين للأجيال فقد اشتغل الزاهري معلما في المدارس الحرة التي تشرف عليها جمعية العلماء المسلمين متنقلا بين مختلف أنحاء الوطن.

قال الزاهري:

وإذا العلم في الجزائر لا يجلب نفعا للعالم الصنديـــد
هو في قومه مقيم على الضيم مقام المسيح بين اليهـود
أيها العالم الرشيد، الذي يمـ حض نصحا دوما لغير رشيد
أنت في أمة تداركها اللـــ ـه بلطف كصالح في ثمـود

غادر الزاهري في سنة 1925 تونس عائدا إلى أرض الوطن، فاستقر بالجزائر العاصمة، وانضم إلى جماعة الإصلاح التي كانت في هذه الفترة في بداية عهدها

تعمل على غرس البذور الأولى للفكر الإصلاحي في النفوس وفي السلوك، فأخذ مكانه بين أعضائها، ومضى على هدي منهجها ينهض بأعباء الجهاد في السّاحة الوطنية على أكثر من صعيد على طريق الوعظ والإرشاد، وفي حقل التربية والتعليم، وفي ميدان النوعية والتوجيه، فكان داعية مصلحاً، ومعلما مربياً، وصحفياً حرا ، وأديبا ملتزماً.

كان الزّاهري كغيره من روّاد النهضة مصلحا، اجتهد في بث الوعي الدّيني الصحيح، ونشر الفكر الإصلاحي المستنير في صفوف أفراد الأمّة، داعياً إلى تصحيح العقيدة بالرّجوع فيها إلى منابعها الأولى : (الكتاب، والسّنة، وهدي السلف الصالح .) وتصفيتها ممّا علق بها من شوائب وبدع وضلالات بفعل جهل بعض المبتدعين المشعوذين.

كان الزّاهري في هذه الجبهة من أكثر المصلحين الجزائريين صلابة في مقارعة أولئك المتمربطين الدجالين ودحض أباطيلهم وضلالاتهم وخرافتهم

وكان على الإصلاح أن يضع ثقله في مواجهة(الطرقية)[2] وأن يأخذها بالتي هي أحزم وخاصة بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة 1931م [3]

فكانت الاحتفالات السنوية للجمعية موعدا هاما تطلع إليه النفوس ضد أولائك الذين يمجدون الاستعمار في الذكرى المئوية للاحتلال الظالم.وفي الاجتماع السنوي وقف محمد السعيد الزاهري بهذه القصيدة التي تعتبر فصل الخطاب ضد الطرقية المنحرفة عن الصواب.

قائلا:

حي العروبة في جمعية العلمـــا وحي ويحك فيها الدين والشيما

جمعية لا تزال الدر ماضيـــة من يوم نشأتها نحو العلا قدما

تدعو إلى الله عن علم وبينـــة لا كالدين إلى جهل دعوا، وعمى

جمعية جمعت صيد الجزائر، من تعشقوا المجد والعلياء والشمما[4]

وكان مّما زاد في عنف موقفه من هؤلاء وقسوة ردود أفعاله حيالهم ما عرف به

من حدّة المزاج، وثورة الانفعال، وقلّة صبره على رؤية مظاهر الفساد الخلقي ، والانحراف الديني والتردي الاجتماعي .

واستمر الزّاهري يواصل جهاده على هذه الجبهة إلى أن كثر سواد جماعة الإصلاح مع مرور الأيّام، وانتظم عقد حركتهم واشتدّ عودها.

وكان لتلك الجهود أن أتت أكلها رغدًا طيّبًا بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، وهي جمعية دينية، وطنية، إصلاحية، تربوية، حضارية.

كان الزّاهري من بين مؤسسي هذه الجمعية وأحد الأعضاء الفاعلين في مجلسها الإداري. وقد انتظم في هذا المضمار نشاطه على إثر ذلك وازدادت فاعليته، وأصبح يمثل هذه الجمعية في مدينتي (تلمسان ووهران) في الغرب الجزائري . إلا أنّه لم يلبث أن بدأ في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين يقلّل من نشاطه في جمعية العلماء التي تمثل الجناح الحضاري في الحركة الوطنية، وبدأ يتقرب في نشاطه من الجناح السياسي لهذه الحركة، وانتهى به هذا التحوّل إلى أن استبدل أو يكاد ركوبه متن المنهج السّياسي بالمنهج الحضاري للجمعية. فأصدر سنة 1947 جريدته (المغرب العربي) ، وأصبح من خلالها ينشط في الميدان السياسي أكثر ممّا ينشط في غيره.

أما في الحقل التربوي فكان الزاهري من أعلام الحركة الوطنية الحضارية في الجزائر منذ انطلاقتهم الأولى في جهادهم يدركون -كسائر أعلام الإصلاح في العالم العربي الإسلامي- أن علة العلل في أمراضهم الاجتماعية وتخلفهم الحضاري، وما إلى ذلك من عوامل ما يسميه المفكر الكبير مالك بن نبي (القابلية للاستعمار (هو الجهل ، وأن العلم من أبرز العوامل الفاعلة ذات الأهمية البالغة فيما يريدون أن يؤسسوا له من بناء على طريق النّهوض بالأمة، والسّمو بواقعها، فكانوا لذلك يولون هذا الجانب - من بين ما تقوم عليه حركتهم من أسس - العناية الكبيرة اللازمة.

وقد انطلق الزّاهري -كغيره من أعلام النهضة - من هذه القناعة ، ومضى يسهر على تربية النشء وتهذيبه وتثقيفه، فكان أستاذا في أكثر من مدينة من مدن البلاد ، فقد علّم بمدينة (الأغواط) جنوبا، وبـ (تلمسان ووهران) غربا، وبـ (الجزائر العاصمة) شمالا .إلاّ أنّ نشاطه في هذا الميدان لم يعمر طويلا، ولعلّ مردّ ذلك لغلبة الميول الأدبية والسياسة والصحفية على نفسه، ممّا جعل نشاطه في الحقل التربوي أقل من نشاطه في غيره من الميادين
.إذ يقول:

ولولا عفاف في طباعي يصدنـــي لما كنت ممن يغلب الحب تقواه
ولكنه سلطان نفسين عفافهـــا فيمنعها من شر ما تتمـــاه
ذكرت على بعد المزار، وذو الهوى تهيج له الشوق المكتم ذكراه
وفتية أنس كنت أجمع شملـــهم على منزه يسترجع الطرف مرآه
وساق كأن الشمس تجري بوجهـه يبيت يساقينا الذي بات يسقاه
سلام على عهد الخلاعة، إنـــه لعهد لعمري لست ما عشت أنساه
وما كنت أقوى بالفراق وإنمـــا دعا المجد ذا الهم بعيد، قلباه

وشعر الزاهري في مرحلته الثانية التي واكبت حياته كلها، ذو طلاقة وانسياب، وتفنن في إبراز الصور المعروضة. وتقليب على جميع الوجوه وبمختلف الأضواء. وهو إلى جانب ذلك طويل النفس دون ملل، عميق التهكم في غير استهتار، ذو أناة في تتبع الجزئيات وتقصي التفاصيل، وصاحب قدرة في تسلسل الأفكار وترابط الصور المتلاحقة.[5]

وكانت مشاركته في النشاطات الإصلاحية الوطنية - مصلحا ومربيا وصحفيا - أديبا لامعا من أدباء جيل النّهضة في الجزائر، هؤلاء الذين فتحوا عيونهم على مأساة أمتهم، وهي تدفع عن نفسها هجمة الغزاة المستدمرين الفرنسيين، وتتصّدى لإحباط مخططاتهم التغريبية ضد قيمهم ومقومات شخصيتهم . فاندمج هؤلاء الأدباء في حلبة هذا الصّراع ينافحون بالكلمة المجاهدة، الكلمة المسؤولة، الكلمة

المعبرة عن أمتهم ، ويواكبون حركة جهادها، ويرسمون الطريق أمامها نحو النّهوض والتحرر والتقدم

كان الزاهري يزاوج بين الصناعتين ، ولذلك توزّع أدبه بين الشعر والنثر، فقد كان شاعرا بين الشعراء، وكاتبا بين الكتّاب، وخطيبا بين الخطباء.

بدأت ميوله الشعرية تأخذ مكانها من اهتماماته في فترة مبكرّة من حياته ، تعود إلى المراحل الأولى من تعلّمه بجامع الزّيتونة بتونس يقول الزاهري"كثيرا ما أعرض عليه – يقصد شيخه بالزّيتونة معاوية التميمي– القصيد فيعيب علّي منه أشياء، فمازلت كذلك حتّى أصبحت إذا قلت قصيدة عرفت ما سيعيبه علي فيه من الأشياء من قبل أن أعرضه عليه، لأنه إذا عاب شيئا يبيّن وجه العيب فاتنحى عنه"[6].

كما يذكر الزاهري عن بداية تعاطيه نظم الشعر، ما يؤكد أنه كان يميل – كمعظم الشعراء الناشئين – إلى الولوع بالغريب، والحرص على استخدامه في نتاجه، ظنا منه أن الشاعرية إنما تتحقق بقدر ما يتوفر عليه النتاج الشعري من خاصية الإغراب. إلا أنه أدرك بعد أن سار أشواطا في هذا الطريق، أن قيمة التجربة الشعرية، إنما تتحقق بقدر ما تشتمل عليه من صدق الشعور، وبما تتوفر عليه من وجوه المواءمة بينها وبين الصورة اللفظية المعبرة عنها.

وكان الزاهري الشاعر في الوقت ذاته كاتبا يدبج المقالات، يرتجل الخطب، يسهم في كتابة بعض الصور من الفن القصصي: فكان بذلك أحد رواد الفن القصصي في الجزائر.

يتميز أدب الزاهري كمعظم نتاج جيله من أدباء النهضة في مضمونه وفي مراميه بالالتزام بالرسالة الواقعية النضالية، والمزاوجة في صورته اللفظية ما بين خصائص النموذج الفني التراثي، وبين ما استجد في عصره من صور وأساليب

واكب الزاهري ركب الإصلاح الديني وعين عضوا في إدارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين [7].

وقد تحرك قلمه في كل وجهة إصلاحية وناقش بسعة أفق وعمق معرفة كل مشكلة ثار فيها الجدل بين المحافظة والتجديد وزخرت مجلة الشهاب الأسبوعية الشهرية باسمه شاعرا وناثرا، ولم يكن الزاهري للجزائر فحسب، ولا للنهضة الإصلاحية فيها فقط، وإنما كان يتابع الحركة الفكرية والدينية في أوسع مجالاتها في الشرق العربي ويستمد من قراءة دورياتها على صعوبة طريقها إلى الجزائر [8]

وكان لا يكتفي بها قارئا وإنما ساهم فيها كاتبا ومناقشا .ومن هنا يتجلى لنا الرجل ضليعا في نثره وشعره، ذا تصرف قدير في اللغة، وطواعية نادرة في القافية، وأسلوب قصصي شيق في النثر، ومقالاته كلها وهي تعالج قضايا اللغة والدين صبت في أسلوب قصصي روائي جذاب إن يكن بعضه واقعا فالبعض الآخر من نسج خياله، مما يكسب المضمون الجدي المقالة خفة وقع على نفس القارئ، وتقبلا له رغم امتداد أطرافه، وتفرع مشكلاته.

على أن يكفينا دليلا على مكانة الرجل أن انفتح لإنتاجه صدر الصحافة الرائدة في المشرق، واحتل منها صفحتها الأولى.

الزاهري الصحفي :

كان الزّاهري قد دخل ميدان الإعلام والصّحافة مبكرا، ولعل دخوله إلى هذا الميدان كان أسبق من دخوله في غيره، ذلك أنّه كان قد مارس الكتابة في الصّحافة، وهو في مرحلة التّحصيل العلمي بتونس [9]. وكان لذلك أوّل نشاط يقوم به بعد عودته من هذا الرّحلة إلى أرض الوطن ، هو اشتغاله بالصحافة، فأصدر سنة 1925 جريدته الأولى (الجزائر).

إلاّ أنّ المحتل لم يصبر على أصالة توجه هذه الصحيفة وحرارة لهجتها، فسارع إلى وأدها بعد صدور ثلاثة أعداد فقط منها.

بيد أنّ الزّاهري لم تثن تلك المظالم عزمه على مواصلة جهاده في هذا الميدان، فاستمر ينشر آراءه وأفكاره في بعض الصّحف الوطنية، كما أصبح سنة 1933 يرأس مع الشيخ الطيب العقبي تحرير جريدتي (السّنة والشريعة) وهاتان الجريدتان من أوّل ما أصدرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من صحف.
ثم لم يلبث الزاهري الصحفي أن أصدر مجموعة من الجرائد هي: (البرق سنة 1927) (الوفاق 1983)، (المغرب العربي 1947.

والغريب أن الكاتب الكبير والبحاثة الأستاذ أنور الجندي لم يتطرق في كتابه الضخم «موسوعة تاريخ الصحافة الإسلامية » إلى الشيخ الزاهري ومقالاته السابقة على الرغم من تعمقه في البحث عن هذه المجلة، ودراسة كتابها من المشرق والمغرب!

خاتمة:

لقد حان الوقت لإنصاف الشيخ الزاهري أحد أساطين الصحافة العربية في الجزائر، بما ساهم به من مقالات رائدة في الأدب والسياسة، وبما أصدره من الصحف على الرغم من كل المتاعب والمضايقات لخدمة العربية والإسلام والدفاع عن جزائر الجزائريين؛

وفاته : استمر الزاهري حاملا راية النضال في مختلف ميادين الكفاح الوطني مصلحا ومربيا وصحفيا وسياسيا وأديبا طوال عقود النهضة الوطنية، والأعوام الأولى من ثورة نوفمبر المجيدة ، إلى أن لقي مصرعه- رحمه الله- في ساحتها في الفاتح من جانفي .1956.

الهوامـــــــــش:

1 ـــــــ مـحمد الهادي السنوسـي – شعراء الجزائر في العصر الحاضر ج1 ص:67.- المطبعة التونسية تونس.1926

2– محمد محمد السعيد الزاهري د/ صالح الخرفي ،سلسلة الأدب الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر .1986

3– هذه القصيدة أنشدها بعد محاولة اغتيال العلامة عبد الحميد ابن باديس عام 1927 من قبل بعض أتباع الطريقة العليوية

4– محمد محمد السعيد الزاهري د/ صالح الخرفي ،سلسلة الأدب الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر .1986

5– نفسه ص .73

6 –مـحمد الهادي السنوسـي – شعراء الجزائر في العصر الحاضر ج1 ص:67.- المطبعة التونسية تونس.1926 .

7– كان الزاهري من بين أعضاء أول مجلس إداري لجمعية العلماء المسلمين

8– في سنة 1927حجزت الحكومة الفرنسية على جريدة الشورى أن تدخل الجزائر ومنع دخول مجلة المنهاج...

9 – ينظر(د/ محمد صالح الجابري :النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1960-1962 ص: 391 .(الدار العربية للكتاب تونس- الشركة الوطنية للنشر وللتوزيع الجزائر 1983